

ثوب وزوج !!

ما كاد عمر بن عبد العزيز يتولى الخلافة ، حتى أحس بأنه مقيد ؛ لم تعد له تلك الحرية الطليقة التي كان يتمتع بها إلى حين ، حينما كان يخلد إلى نفسه ، فيرعى مصالحها ، ويصلح من أمرها ... أما الآن فقد أصبح مسئولاً عن كل فرد من أفراد رعيته أمام الله ، الذي ولاه أمر الناس ، وما أعظم هذه المسؤولية ، وأشق هذه التبعات الجسام ..

وضايقته هذه المظاهر التي أسرف فيها خلفاء بني أمية إسرافاً ؛ خرج بها عن جادة الصواب ، وباعد بينهم وبين روح الإسلام ، التي تأبى هذه المظاهر ، وتبرأ من هذا التبذير والرياء ، وبدأ يطهر البلاد من أوساخها ، والخلافة من أدرانها ، معتمداً في ذلك على الله ، الذي لا يخشى غيره ، ولا يخاف سواه ..

وما كاد يؤدي مهمته هذه ؛ حتى اتجه وجهة أخرى فيها مظاهر السرف والترف ، والتبذير المقيت ، وهي بقية مما ترك هؤلاء الأمويون ؛ الذين نظروا إلى الدنيا من زاوية واحدة ، أعمتهم عن كل شيء ، وصرقتهم عن أهم ما يتحلى به الحاكم ، ويتسم به الخليفة .. نظروا إليها من حيث هي دار لذة ومتعة ، وراحة ونعيم .. وغفلوا عن خير مافي هذه الحياة الدنيا وهو الزهد فيها ، والرغبة عن لذائذها ومتاعها ، والتقرب بها إلى الله فحسب ،

واستغلال جميع النعم في سبيل الخير الخاص والعام ، الخير الذي ينفع الناس في دينهم ، ويجعلهم أعزة غير أذلة ، أقوياء يرهبهم العدو ، ويخشى يأثمهم ، ويخاف صولتهم على أن يكون العدل المطلق أساس هذه الحياة ، لا العنت والجبروت ، أو التعاطف على الناس ، والاندفاع مع الكبرياء المقيتة التي تسيء إلى الإسلام والمسلمين ، وتكون شر عنوان للأمة ، وممول هدم ، يهدم صرحها وبنياتها ..

ولكن هذا الشيء الذي أتجه إليه ، سيجعله دون ريب في موقف حرج ؛ لأنه يتصل بأحب شيء إلى نفس المرأة ، وأعزه لديها .. يتصل بزينتها وحليها .. والمرأة تفضل أن تجوع أياما راضية مختارة ، ما دامت تستكمل أدوات زينتها ، مما يظهرها جميلة في نظر الرجل ، وبخاصة من تحب .. وأدرك عمر بن عبدالعزيز ذلك ، ولكنه تذكر أنه خليفة ، وأنه يجب أن يذلل ما في وسعه في سبيل خير المسلمين ، وفي سبيل إسعادهم ورفاهيتهم ، وهو يعلم أن هذا الثوب الجميل الغالي الثمن ، الذي تملكه زوجته ، والذي صنعه لها أبوها عبد الملك بن مروان ، فيه شبهة لاجرم .. أليس عبد الملك من خلفاء بني أمية الذين أسرفوا في مظاهر الخلافة ، وأمغنوا في التبذير ؛ حتى خرجوا بالخلافة عن السنن القويم ؛ الذي كانت عاياه أيام الرسول الكريم ، والخلفاء الراشدين من بعده ؟ لقد أصبحت في هذا المهد العجيب ملكا بكل مظاهره ومزياه ..

إذن فهذا الثوب من مال المسلمين ، ومن الإنصاف أن يباع ويوضع

ثمنه في بيت مالهم ، أو يوضع بنفسه في بيت المال ، ليكون ضمن ما يملك
المسلمون .. وهذا حكم الله ، ولا حكم غيره ..
وتنازعت هذه العواطف المختلفة ، والمشاعر المتباينة ، ولم يتمالك نفسه
من شدة الانفعال ففاضت دموعه وبكى .. !!

* * *

وحاول أن يقاوم عمر بن عبد العزيز هذه الرغبة القاهرة في مصارحة
زوجته بكل ما يجوس في خاطره ، ولكن ذهبت محاولاته أدراج الرياح ،
ووجد نفسه مندفعاً نحو زوجته ، وما كاد يدخل عليها حتى بكى
واستعبر .. !!

يا لله ! ما هذا ؟

وفغرت الزوجة فاها ، حينما رأت زوجها على هذه الحال من الحزن
العميق ، وقد استبد به الأسى والالتياح ، وظهرت على وجهه هذه العلام
في وضوح وجلاء .. لماذا كل هذا العناء والألم الشديد ؟ إن هذا الغريب ،
إن زوجها يجب عليه أن يفرح ويسر ، بدل أن يحزن ويعبس .. إنه
أصبح خليفة له قيمته ومكانته .. لقد عهد إليه أخوها سليمان بالخلافة ؛
وانتخبه المسلمون كذلك ، ووضعوا أعناقهم في يديه ، واستودعوه آمالهم
وأمانهم فرحين مغتبطين ، وهم يعلمون أنهم بذلك يعيدون عهداً من
عهود الخلفاء الراشدين .. فما سبب هذا الحزن الآن ، ولا داعي له أبداً

واحترمت الزوجة الوفية شعور زوجها ، وصمتت حتى استفاق من بكائه
انتعش من عبرته . فتمالت في حنان :

— ما يبكيك يا عمر ؟

— اختاريني ، أو اختارى الثوب الذى عمله لك أبوك ..

وفوجئت الزوجة بهذا الكلام ، فما علاقة الثوب به ؟ ولماذا يريد
ن يتخلص من الثوب ، وهو غال عندها ، أثير لديها ؟!

إن هذا الثوب يذكرها بأبيها عبد الملك بن مروان .. ثم هو غال جداً ،
إذ أنفق عليه عبد الملك مائة ألف دينار .. لقد افتنّ فيه الصانعون ،
فتسجوه بالذهب ، ونظموه بالدر والياقوت ؛ حتى خرج طرفة فنية يلفت
النظر ، ويبعث الفرحة الغامرة في نفس كل من رآه ..

ثم لماذا يريد عمر أن يتخلص من هذا الثوب الذى هو كمال زينتها ؛
وتمام حايها ؟ هل يريد لها امرأة عادية من عامة النساء ، لا ترفل في الديباج
والحرير ، ولا تتحلى بالذهب والأحجار الكريمة ؟ ..

إنها ابنة خليفة ، وأخت خليفتين ، وهما هي تى الآن قد أصبحت زوجة
خليفة ، ومن حقها أن تلبس هذا الثوب عن جدارة واستحقاق ، فلماذا
يريد أن يحرمها منه ، وأن يجعلها عطلاً من الزينة ، مجردة مما تهتم به المرأة
وتعتبره من ضروريات الحياة ولوازمها .. ؟ ترى هل ملها وسئها ، فهو
لا يريد لها مزينة أو مجردة من الزينة ؟ وهل يريد أن ينتفع بثمن هذا
الثوب ؟ إن كان هذا ، فهو البلاء بعينه ، وما تستبعد أن يقع فيه عمر ..

أجل ، فهي تعلم أنه يحبها حبا ملك عليه عواطفه ومشاعره ، وأنه لا يرضى بغيرها بديلا ، فهو كلف بها ، يبدو هذا في معاملته لها طوال حياتهما الزوجية السعيدة ، التي لم تشبها بحمد الله شائبة ، تعكر الصفو ، أو تكدر الخاطر .. !!

الأمر إذن واضح كل الوضوح ، فلا بد أن يكون عمر قد هدف إلى ناحية هامة خفيت عليها ، وله فيها وجهة نظر ، وهذا عهدا به دائما .. وفهم عمر ما تعانيه من ثورة نفسية ، فأشفق عليها وأخرجها منها خشية أن تذهب مع الخيال مذاهب شتى ، فقال لها موضحا شارحا :

— إن اخترتني ، فإني آخذ الثوب فأجعله في بيت المال ، وإن اخترت الثوب ، فلست لك بصاحب ..

أوه .. إذن لقد فهمت كل شيء ، وظهر لها الأمر على حقيقته ، فعمر يظنيه خطأ أسلافها ، وبذخهم الشديد ، وإسرافهم في أموال المسلمين ؛ التي جعلها الله حقا لهم ، تدفع الفقر عن الناس ، وتكفيهم ألم الحاجة ، وذل السؤال ، وتقوى حصونهم ، وترقى بهم إلى أسمى مراتب الكمال الإنساني .. أما الزينة والخلي ، وأما حبس الأموال على هذه الأغراض ، فلا طائل تحته ولا خير فيه ، وبخاصة وأن الخليفة يجب أن يحيا حياة مثالية لا أثر للبذخ فيها ، ولا حظ للإسراف منها ..

إذن فخير لها ألف مرة ومرة أن تدفع بهذا الثوب إلى بيت المال .. وأن تختار عمر .. عمر زوجها الوفي الأمين ، الذي يرضى حق الله فيها ، ويؤدي

لها حقوقها في حدود الإسلام على أتم وجه .. إنه الرجل بأوسع ما تحمل هذه الكلمة من معان ، وإنه الآن يأمرها بالخير ، ويحملها عليه حملا ، فلا يليق بها أن تنكص على عقبيها ، وأن تتراجع ، وأن يغلب شيطانها حق عمر .. لا لا .. إن الحق فوق كل شيء ، ثم لا يضيرها ما يريد زوجها .. وما المانع أن تدفع بكل ما تملك إلى بيت المال ؟ إنها فرد من أفراد الأمة الإسلامية ، وعليها تبعات جسام ، ومن حق الأمة عليها أن تستفيد منها ما دامت تملك شيئا تعاونها به ، ويكون فيه قوة لها .. وإن هذا الثوب يجب أن يكون في بيت المال وأن تحسبه عند الله .

ولم تدع الفرصة تفلت ، فقالت في عزم وتصميم :

— أعوذ بالله يا أمير المؤمنين من فراقك .. لا حاجة لي بالثوب ..

وتهللت أسارير وجهه ، واهتز قلبه فرحا وسرورا ، فليد أنقذه الله من هذه الشدة التي نزلت بساحته ، وحلت به .. وأدركه شيء من العطف عليها ! إذ سره إخلاصها ، وشدة إيمانها ، وإيثارها المسلمين على نفسها ، ولهذا قال في تودة :

— سأفعل بك خصلة ترضيها ..

— وما هي ؟ !

— أجعل الثوب في آخر بيت المال .. وأنفق ما دونه ..

— ثم ماذا ؟ ..

— ثم إن وصلت إليه أنفقته في مصالح المسلمين .. وإنما هو من

أموالهم أنفقته في مصالحهم ..

— حسناً ..

— وإن بقي الثوب ، ولم احتج إليه ، فلعل أن يأتى بعدى من يردّه إليك ..

— افعل ما بدا لك ..

وبدت عليها مظاهر الراحة والاطمئنان ، فهذا حل موفق ، أرضى به عمر دينه وضميره ، ولم يفضيها أو يغضبها في الوقت ذاته .. وهانت الدنيا في نظرها حينئذ ، وعلمت أن الحياة ليست حلياً وزينة ، وليست مظاهر تستنفد القوى ، وتهدم الأبدان ، وإنما هي أسمى من هذا وأرفع ، وإذا لم يفهمها الإنسان على حقيقتها ، اندفع مع هواه ، ولم يستطع بعد هذا أن يكبح جماح نفسه ، أو يردّها إلى الخير مرة أخرى ..

ونظرت إلى زوجها وأطالت النظر ، وودت لو تمسك به ، إذ خيل إليها أن أحداً كان يريد أن ينتزعه منها ، ودون ذلك خطر القتل ، وجُدع الأنف ، ودق العنق ..